الخدمة الاجتماعية

فى ميدان الخدمة الاجتماعية

للدكتور محمد عبد المنعم رياض بك

السكرتير العام لوزارة الشئون الاجتماعية

"الخدمة الاجتماعية روح يتغلغل فى جسم المجتمع ودم يجرى فى شرايينه فيبعث فيه القوة والنشاط . وفى هذا المقال المتع يبين لنا الكاتب كثيرا من النواحى التى يجب أن يصرف إليها نشاط الخدمة الاجتماعية ويحدثنا عن الشروط التى يجب أن تتوافر فى من يضطلع بهذه المهمة السامية"

المحرر

أفلحت الانسانية فى الانتصار على كثير من صعاب الحياة وآفاتها ، واستطاع العقل البشرى أن يبتكر من دقيق الاختراعات ما يهزم به هذه الصعاب إلا شيئا واحدا عجز العقل والاختراع عن التغلب عليه وهو الشقاء .

وجاء الشقاء منذ وجد الانسان ، وظل ملازما له فى كل زمان ومكان ، ومحال أن يكون لإنسان أمان من الشقاء مهما اجتمعت حوله أسباب الدعة والنعيم .

ولقد اتخذ الشقاء صورا وألوانا مختلفات . فبعد أن كان معنى الشقاء عند الناس التجرد من المال أصبح يشعر به كثيرون ممن لم يحرموا نعمة المال ، فالذين لم يوفقوا فى علاقاتهم الاجتماعية أشقياء ، والذين ضعفت نفوسهم وعقولهم وأخلاقهم فثاروا على المجتمع وارتكبوا الجرائم أشقياء ، والعجزة الطاعنون فى السن أشقياء ، والأيتام والأرامل والمصابون بالعاهات المستعصية أشقياء ، وكل دوزة من دورات الزمن ، وكل حادثة من حوادثه كالحروب والزلازل وطغيان الأنهر والسيول ، واشتداد الغلاء أو الضنك الاقتصادى ، كل أولئك يخلق شقاء وأشقياء جديدين .

وحيثما وجد الشقاء وجد من يحاول تخفيفه وتقليل ويلاته ، وأول الوسائل فى هذا الباب الصدقة يقدمها المرء إلى المعوزين من أهله وعشيرته الأقربين ثم إلى غيرهم من المحتاجين ، ولو لم تكن له بهم صلة .

هكذا كان أول عهد البشرية بالصدقة يجود بها الفرد على الأفراد . ثم وجدت فكرة التعاون عليها والقيام بها جماعات لا فرادى ، وكانت بابل واليونان أسبق أمم الأرض إلى تنظيمها وابتكار وسائل تعاونية لمساعدة الأيتام والأرامل والعجزة وجرحى الحروب ، وأخذ أطباء الأمم القديمة وكهانها وحكامها يعنون بتطبيب المرضى والفقراء اللاجئين والغرباء ، فكانت هذه المحاولات الانسانية هى الأسس الأولى لفكرة المستشفيات والملاجىء .

وربما كان التفاخر وحب الثناء عند الأفراد ، وللأغراض السياسية عند بعض الأمم ، الدخل الأول فى تقديم الصدقة أو تنظيمها . لكن عاطفة الإحسان أصيلة فى الطبع البشرى على كل حال . ولما نزلت الأديان السماوية جاءت كلها آمرة بالصدقة موصية الأغنياء والقادرين بتقديم العون إلى الفقراء والضعفاء ، والاسرائيلية والمسيحية والإسلام كلها تدعو إلى إيتاء ذى القربى و إطعام الفقير والمسكين ومواساة العائل واليتيم وتحض على أن يحب الانسان لأخيه ما يحب لنفسه .

ومضت الانسانية فى طريق التعاطف والرحمة عاملة على المواءمة بين حاجة الفرد وحاجات بيئته إذ أن قوة البيئة مستمدة من قوى أفرادها على اختلاف حالاتهم ، وكلما كثر العاجزون والفقراء والمرضى والأيتام وغيرهم من الأفراد الأشقياء ، كان فى ذلك تجسم للشقاء العام .

ولقد يرجع شقاء الأفراد الى أسباب يكون المجموع هو المسئول عنها ، إذ أن المرض مثلا قد لا يرجع فى كثير من الأحوال الى تقصير الفرد فى العناية بجسمه وصحته ، بل إلى رداءة المسكن المخصص له ، أو المصنع الذى يعمل فيه أو تقصير الجهات المسئولة فى صيانة الصحة العامة ، وقد يرجع الى تقهقر الصناعة أو تغير أنظمتها أو الى أزمة من الأزمات .

وكذلك يمكن أن يعزى الكسل والتسول والتشرد والإجرام والبغاء الى عوامل خارجة عن قدرة الفرد كاهمال العناية بالطفولة أو بالصحة أو بالتعليم ، وكل هذه الأسباب لا ذنب للفرد فيها وليس هو بقادر وحده على مداواتها ، أعنى مداواة هذه الأنواع المختلفة من الشقاء ، بل القادر على العلاج أولا وآخرا هو الجماعة .

وواضح من هذا الترابط الطبيعى بين الفرد والجماعة أنه ليس من الممكن تحديد أسباب الشقاء ولا تحديد المسئول عنه ، وبذلك لا يجوز القول بأن هذا فقير يستحق الإحسان وهذا فقير لا يستحقه ، ولا يجوز أن نعنى بهذا دون ذاك ، ولكل شق حق على المجموع فى أن يعنى به ويخفف من شقائه ما استطاع إلى ذلك سبيلا : للضعيف حق على القادرين ، وللمريض حق على الأصحاء ، وللمشرد حق على الناعمين الآمنين فى مساكنهم ، وللأسرة البائسة حق على الجيرة

والأصدقاء ، تلك هى أهم الحلقات فى سلسلة الخدمة الاجتماعية التى نحض عليها ونبذل الجهد لتنظيمها وتعميمها ، كى تبعث أشعة السعادة فى كل الأجواء ، وتبدد مايغشى البلاد من ظلمات الشقاء .

ولتبديد الشقاء والوقاية منه وسائل كثيرة ، منها ما يستند إلى المال كالتأمين الاجتماعى لحماية المرضى والعجزة والعاطلين ، أو كالهبات المالية التى تمنح للأسر الفقيرة ، ومنها مايستند إلى الإصلاح الخلقى ونهى الناس عن الرذيلة والفساد ، ومنها مايقوم على العناية الصحية وتعليم الناس كيف يتقون عدوى الأمراض ، ومنها مايتصل بالأمن كمنع حوادث الإصابات أثناء العمل وأخذ الطريق على الجرائم قبل وقوعها ، ومنها مايتعلق بتنظيم الحياة الاقتصادية داخل البلاد وخارجها ومقاومة الفقر والعطل بتوفير مواد الكسب وتهيئة أسباب العمل ، وبذل كل جهد لإسعاد الشعب وتمتيع كل فرد منه بنصيب من نعم الحياة ومباهجها ، وينطوى تحت هذا الغرض الأخير إنعاش التجارة والصناعة والزراعة وكل مايمكن أن يضع فى أيدى الناس مالا ويوفر لنفوسهم هناءة وراحة ، إذ أن أثر هذا الإنعاش يعم كل طبقات الشعب وكلما كثر المنعمون قل الأشقياء ، وكلما تزايد عدد الأصحاء جسما وعقلا ونفسا تناقص عدد الضعفاء والجاهلين والمحرومين .

إن المجموع جسم والأفراد هم أعضاؤه ، وهذه الأعضاء كلها يتصل بعضها ببعض ، والروح والشعور ساريان فى الجميع ، فكل نقص يعترى الجزء يشعر به الكل . هكذا يجب أن تكون نظرة المصلح الاجتماعى واتجاهه ، ويجب أن يذكر دائما أننا فى تكويننا الاجتماعى نرجع الى خلية واحدة اذا تقسمت فان هناك وحدة تجمعها هى نفس الوحدة التى تجمع بين الروح والجسم ، والصحة الحقيقية هى الاحتفاظ بتلك الوحدة سليمة قوية . وذلك يتوقف على نشاط الأعضاء وحسن الانسجام بينها . وكما يضر الجسم ما يطرأ عليه من مرض روحى أو نفسانى فالعكس بالعكس ، إذ أن "للنفسيات" كالغضب والقلق والخوف أثرها فى حالة الجسم وأعضائه وعلى الأخص القلب والأمعاء ، لهذا لا يكفى فى حماية الصحة ما يقوم به الطبيب من تطهير الجسم من السموم ، بل تجب — بجانب ذلك — حمايته من مؤثرات البيئة ومن فعل الظروف المحيطة به وهى مختلفة كثيرة التقلب ، ومعنى هذا وذاك توثيق الصلة بين الجسم والروح أو بين الأعضاء الجسمية والشعور النفسى لأن تغير الظروف المحيطة بالانسان ينشط ناحية فسيولوجية فى الجسم لكى تقوم الأعضاء والأعصاب والدم بشىء تواجه به هذا التغير .

ألا ترى أنك إذا أبصرت عدوا أرهفت أعصابك وازداد قلبك خفقانا وتحفزت للمقاومة الجسمانية ولدفع الخطر ؟ وهنا يأتى دور المقدرة على "الملاءمة" التى تمكنك من مقاومة

الظروف المحيطة بك ، فتنشأ لديك قوة الاحتمال والصبر . وكلما مكن الانسان من استغلال ما لديه من القوى استطاع أن يقوم بدوره على مسرح هذا العالم ويحيا حياة سعيدة . ونحن قادرون على أن ننشىء هذه الحياة بل على أن نصوغ حياتنا كما نشاء، نافعة أو تافهة، قوية أو ضعيفة ، حسبما نتجه اليه من أغراض طيبة أو سيئة ، ومن مثل عالية أو هابطة .

إلى هذه الناحية، ناحية إسعاد الحياة يجب أن يلتفت المصلح الاجتماعي حق الالتفات ، فيعمل على تعميم المعيشة الحسنة فى المدن ، وعلى رفع مستواها فى القرى حتى يشعر أهلها بأنهم آدميون حقا ، ويتمتعوا بما يتمتع به سواهم من مسكن صحى وماء نقى وطعام نظيف ثم على نشر التعليم وترقية حياة العمال وصحتهم وتنظيم أوقات فراغهم .

هذه كلها سبل إلى تخفيف الشقاء بقدر ما هى سبل إلى توفير السعادة والهناء ، بل هذه رسالة سامية لا يؤديها إلا المخلصون الأكفاء .

ولقد حمل هذه الرسالة أول الأمر رجال قلائل صفت نفوسهم وخلصت نواياهم ، وعمرت قلوبهم بحب الخير ، وعز عليهم أن يسكتوا على ما تعانيه الانسانية من آلام ، فكانوا الطليعة الموفقة فى ميدان المروءة والعمل الصالح ، والمعلمين الأول لدروس الخدمة الاجتماعية ، قاموا بهذا العمل الانسانى أفرادا وقاموا به جماعات منظمة يبذلون المال للفقير ويتقصون أسباب الشقاء فى كل طائفة ليعملوا على درئها أو استئصالها ، على أن هذه الجماعات لم يستقم أمرها ولم ينتظم سيرها فى أوروبا وأمريكا إلا فى أوائل القرن التاسع عشر حين بدأ الناس يؤمنون بأن الاحسان غير المنظم لا يؤتى الثمرة المرجوة ، بل قد يؤذى المجتمع ، إذ كثيرا ما يبذل فى غير وجوهه الصحيحة ، أو يستغله غير المحتاجين .

ولقد اطرد تنظيم الاحسان فى أكثر البلاد الغربية ، فأنشئت جمعيات مركزية تضم عددا من جمعيات البر المستقلة كان أهمها جمعية اندره التى أنشئت سنة ١٨٦٩ ووضعت نظاما يمنع سوء استغلال الاحسان ويقضى بالبحث الدقيق فى الحالات الضرورية ، وبالتعاون بين الهيئات المختلفة التى تقوم بأعمال البر وتقدم المعونات إلى مستحقيها ، وقد تطوع لتنفيذ هذه الأعمال الانسانية عدد من المتطوعين فى أول الأمر ، ثم دعت الحال إلى استخدام عدد من الموظفين حين اتسعت دائرة العمل فى هذه الجمعيات وتعددت ميادين خدماتها الاجتماعية .

ومن الحق أن نقول إن كل شىء فى هذا المجتمع يحتاج الى الخدمة الاجتماعية : فالطفل عند ولادته مفتقر الى هذه الخدمة ترعاه هو وأمه خصوصا اذا نشأ ضعيفا أو شاذا أو ذا عاهة .

فهو اذا وجد الرعاية والعلاج دخل على المجتمع الانسانى عضوا نافعا ولم يندفع الى طريق التشرد أو الاجرام .

وكذلك الرجال والنساء والشبان والشابات ، كلهم فى حاجة الى خدمة اجتماعية تهديهم سواء السبيل ، وتخفف عنهم أثقال الحياة . ولا تطلب هـذه الخدمة للأفراد وحدهم بل للطوائف أيضا ، فما أحوج العمال فى مصانعهم الى من يرعى صحتهم و يراقب سلامتهم من أخطار العمل و يهيئ لهم فى أوقات فراغهم وسائل التسلية والترفيه ، وما أحوج الأحياء الفقيرة الى خدمة اجتماعية تدفع عنها المرض وتخفف الفقر ، وتسعى الى خلق عمل للعاطلين والى تهذيب نفوس الفاسدين والعابثين ومدمنى المخدرات والعاكفين على المسكرات والمصابين فى أخلاقهم بمختلف العادات ثم الى تقوية أواصر الود بين الناس ، ونزع الأضغان من صدورهم وإصلاح ما ينشب من الخصومات بين الزوج وزوجه وبين الولد وأهله و بين الجار والجار .

الخدمة الاجتماعية اذن روح يتغلغل فى جسم المجتمع كله ، ودم يجرى فى شرايينه فيبعث فيه القوة والنشاط والشباب . ومن الحق الا يضطلع بهذه المهمة الا من يؤمن بها ايمانا صحيحا ، ومن كانت له شخصية قوية وجاذبية فعالة ونشاط جم وخلق متين وقدرة على الاقناع والارشاد وشىء من الإلمام بمختلف العلوم التى يحتاج فى عمله الى تطبيقها ، كمبادئ الصحة والاجتماع وعلم النفس والقانون . ولتيسير تحصيل هـذه العلوم أنشئت مدارس الخدمة الاجتماعية فى أكثر عواصم العالم المتحضر ، شاملة من الدراسات الوافية ما يجعل خريجيها صالحين لتولى هذه المهمة الجليلة ، بعد شىء من المرانة العملية التى لا غنى عنها وبرامج هذه المدارس شاملة لكل ما يحتاج اليه المصلح الاجتماعى الذى قرر كثير من أصحاب الرأى أن مهنته لا تقل أهمية عن مهنة المحاماة ، ولا يصح أن يقل ما يتمامه صاحبها عما يتعلم من يتهيأ للمحاماة . ولدينا فى القاهرة مدرسة للخدمة الاجتماعية أرى من واجبى أن أحض شبابنا والراغبين فى خدمة المجتمع على الانتظام فى سلكها حتى يقوموا لمواطنيهم بأحسن وأبرك الجهود .

هذا وللمرأة مكان الصدارة فى الخدمة الاجتماعية ، فهى بطبيعة حنانها ورقة عواطفها أقدر على تخفيف الآلام وتضميد الجراح ، وهى أنفذ من الرجل الى أعماق النفوس والقلوب فلتتسابق سيداتنا وآنساتنا فى هذا المضمار النبيل ، ففى مثل هذه الغايات الانسانية الجليلة يجب أن يتنافس المتنافسون ما

محمد عبد المنعم رياض